٢ - ابن سينا

حياته ومصادر فلسفته

بقلم الأستاذ محمد ثابت الفندى
ما جستير فى الفلسفة

انتقلت الأسرة من أفشنة إلى بخارى بقصد تعليم الابنين فى وقت غير مذكور فى الروايات كلها، وإنما هو على كل حال بعد ميلاد الابن الأصغر (محمود) المولود سنة ٣٧٥ هـ كما تقدم فى العدد الماضى، وقبل بلوغ الابن الأكبر سن العاشرة أى سنة ٣٨٠ هـ، وهى السن التى أجاد فيها فهم الأدب وحفظ القرآن ببخارى.

ولقد أسهب أبو على فى وصف نشأته العلمية التى سارت على المنهج الاسلامى فى التعليم، فقد بدأ بحفظ القرآن الكريم ودرس مايلزم لفهمه وتفسيره من اللغة والأدب، وأجاد ذلك وهو فى سن العاشرة حتى صار بما حذقه - وهو فى ذلك العمر - موضع العجب ومثار الدهشة من الجميع.

لم يذكر أبو على أستاذه فى اللغة والأدب، كما سيذكر أساتذته فى علوم أخرى؛ وإذا لم يكن بد من الفرض والتخمين فى مثل هذا الموضع، فإن أقرب فرض هو أن يكون هو «أبو بكر البرقى» الذى صنف له ابن سينا كتابين فيما بعد، هو ذلك الأستاذ، ويؤيد هذا الفرض أن «حاجى خليفة» يجعله أولاً أستاذاً من أساتذة ابن سينا، وثانياً أستاذه فى «الشعر» بالذات، فهو يقول فى كتابه المسمى (كشف الظنون): «ديوان البرقى، وهو أبو بكر محمد بن محمد الخوارزمى المتوفى سنة ٣٧٦ هـ، قال ابن ماكولا: رأيت له ديوان شعر أكثره بخط تلميذه ابن سينا». (١)

ولعل هذا الخوارزمى هو عين أبى بكر الخوارزمى خصم بديع الزمان الهمذانى، وهما اللذان اشتهر أمر خصومتهما فى ذلك العصر، فإذا كان هو عين ذلك الخوارزمى، فإن وفاته لا يمكن أن تكون سنة ٣٧٦ هـ كما يذكر حاجى خليفة، لأن ابن سينا إلى ذلك العام لم يكن قد بلغ من العمر ما يجعله تلميذاً لأديب خطير من أئمة أدباء اللغة العربية، إذ لم يكن عمره إذ ذاك أكثر من ست سنين. وخصم بديع الزمان الهمذانى توفى - كما يقول ابن خلكان - عام ٣٨٣ هـ وكما يقول ابن الأثير عام ٣٩٣ هـ؛ وهذا القول الأخير هو الأصح، وهو يؤيد رأينا فى أن أستاذ ابن سينا هو عين خصم الهمذانى؛ ذلك لأن ابن سينا - كما يروى فى ترجمته - إنما قدم له مؤلفين فلسفيين هما «الحاصل والمحصول»، «والبر والإثم»، وذلك بعد أن أناف على العشرين من عمره أى بعد عام ٣٩٠ هـ على كل حال.

(١) حاجى خليفة: كشف الظنون

بعد حفظ القرآن الكريم ودراسة ما يفسره من اللغة والأدب ، يدخل فى منهج التعليم الاسلامى دراسة الفقه ، كذلك فعل ابن سينا ، فاشتغل بالفقه كثيراً ، وتردد فيه إلى رجل غير نابه الذكر ولا معروف القدر الآن هو اسماعيل الزاهد ، ولقد استطاع ابن سينا الصبى أن ينبغ فى الفقه فى قليل من الزمن ، ويألف « طرق المطالبة ووجوه الاعتراض على المجيب على الوجه الذى جرت به عادة القوم (الفقهاء) »[١] .

ثم وجهه أبوه بعد ذلك إلى رجل كان يبيع البقل ويقوم بحساب الهند حتى يتعلمه منه ، وهذا الرجل - كما يذكر البيهقى - [٢] هو محمود المساح .

وفى ذلك الحين نزل ببخارى أبو عبد الله الناتلى وكان يدعى المتفلسف ، فارتبط والد الفيلسوف فى داره رجاء تعلم ابنه منه ، فبدأ هذا بدراسة كتاب إيساغوجى عليه ، ويظهر أن الصبى ابن سينا كان ذا استعداد متفوق ، لأننا نراه يستخف بأستاذه فى المنطق حيث يقول : « وكان أى مسئلة قالها لى أتصورها خيراً منه ، حتى قرأت ظواهر المنطق عليه ، وأما دقائقه فلم يكن عنده منها خبر »[٣] ، ولم يكن رأى ابن سينا فى أستاذه الناتلى فى العلوم الأخرى يخالف رأيه فيه فى المنطق ، فهو يقول : « ثم أخذت أقرأ الكتب على نفسى وأطالع الشروح حتى أحكمت علم المنطق وكذلك كتاب إقليدس ، فقرأت من أوله خمسة أشكال أو ستة عليه ، ثم توليت بنفسى حل بقية الكتاب ، ثم انتقلت إلى المجسطى ، ولما فرغت من مقدماته وانتهيت إلى الأشكال الهندسية قال لى الناتلى : تول قراءتها وحلها بنفسك ، ثم اعرضها على لأبين لك صوابه من خطئه . وما كان الرجل يقوم بالكتاب ، وأخذت أحل ذلك الكتاب ، فكم من مشكل ما عرفه إلا وقت ما عرضته عليه وفهمته إياه »[٤] . وقد يكون رأى ابن سينا فى أستاذه غروراً منه ، وقد يكون ثقة بعقليته واطمئناناً لمقدرته فى الفهم والتعلم ، وقد يكون أيضاً حقيقة لاجدال فيها .

والناتلى هذا فارسى الأصل نزح إلى بغداد لتلقى العلوم والمعارف ، فدرس الحكمة وتخرج فى المنطق على كتب الفارابى ، ثم هبط بخارى حيث لقى تلميذه الصغير أباعلى ابن سينا ! ثم نزح عنها إلى كركانج حيث التحق بخدمة أمير خوارزم ، وتوفى عام ٣٩٠ هجرية ، وله مؤلفات يقول عنها البيهقى : « وله رسالة لطيفة فى الوجود وشرح اسمه ، ولا يذكر الرئيس فى مصنفاته إلا فى كتاب المقتضيات »[٥] ، ولسنا نعرف شيئاً البتة عن كتاب المقتضيات هذا اللهم إلا ما ذكره حاجى خليفة حين يضيف إلى ابن سينا كتاباً فيقول : « مقتضيات الكبير السبعة » ثم لا يزيد بعد ذلك شيئاً .

(١) القفطى : تاريخ الحكماء ، ص ٤١٦ ، وراجع أيضاً التراجم العربية الاخرى
(٢) البيهقى : تاريخ حكماء الاسلام ص ٢٦
(٣) القفطى : تاريخ الحكما ص ٤١٦ - ٤١٧
(٤) القفطى : تاريخ الحكماء ص ٤١٧
(٥) البيهقى : تاريخ حكماء الاسلام ص ٤٤ ، والشهرزورى ص ١٨٢

انصرف ابن سينا بعد دراسة هذه العلوم إلى دراسة الطب ، وصار يقرأ الكتب المصنفة فيه بتفرده من غير معونة أستاذ ؛ ذلك لأن علم الطب – كما قال فى ترجمته التى أملاها على تلميذه الجوزجانى – ليس من العلوم الصعبة فيحتاج إلى أستاذ ، فلا جرم أن يبرز فيه فى قليل من الزمن ، حتى يبدأ فضلاء الطب يقرءون عليه هذا العلم . وتعهد المرضى فانفتح عليه من أبواب المعالجات المقتبسة من التجربة مالا يوصف ، واستفاد نظرياً وعملياً من تلك التجارب حتى صار طبيباً موثوقاً به واسع الصيت موفور الشهرة ، وكان فى ذلك الوقت من أبناء ست عشرة سنة ، أى أنه أتم دراسة الطب عام ٣٨٦ هـ .

يذكر بعض الرواة أن فيلسوفنا درس الطب على أبى سهل عيسى بن يحيى المسيحى الذى لقبه القفطى « بالمتطبب » ، ذكر ذلك المستشرق (ادوارد براون) فى تعليقه بآخر كتاب « المقالات الأربع »[1] ، وكذلك فى كتابه « التاريخ الأدبى لفارس » .[2]

وأبو سهل هذا كان حكيماً غلب عليه الطب ، وله تصانيف كثيرة فيه ، منها كتاب « صيدلة » بالفارسية ، ويعرف فى اللغة العربية باسم كتاب « المائة مقالة فى الطب » ، ومنها كتاب فى السموم ألفه لخزانة خوارزمشاه مأمون بن محمد [3] ، كما صنف له رسالة فى التعبير [4] ، ويحدثنا صديقه الجم أبو ريحان البيرونى أن أبا سهل صنف له إثنى عشر كتاباً وأهداها إياه [5]

ولد بجرجان عام ٣٦٣ هـ ، لأننا نستفيد من القصة السادسة والثلاثين من كتاب المقالات الأربع أنه توفى سنة ٤٠٣ هـ وليس سنة ٣٩٠ هـ كما استنتج المستشرق Wüstenfeld من غير اعتماد على نص ما ، فإذا كانت مدة حياته أربعين سنة كما قال القفطى [6] ، فلا بد أن تكون سنة ميلاده كما ذكرنا . وقد نشأ وتعلم ببغداد ثم التحق بخدمة أمير بخارى ، قال القفطى : « وكان بخراسان متقدماً عند سلطانها ، وكان فاضلاً فى صناعته (أى الطب) » [7] ، ثم غادر بخارى والتحق ببلاط خوارزمشاه فى كركانج ، وكان بها آنئذ الأمير مأمون بن محمد الذى صنف لخزانته أبو سهل ماذكرناه من الكتب ، ولما كان هذا الأمير قد قتل عام ٣٨٧ هـ فلابد أن أبا سهل المسيحى كان قد لحق به قبل ذلك التاريخ ؛ فإذا ذكرنا أن ابن سينا أتم دراسته الطبية عام

(١) ادوارد براون : المقالات الاربع والترجمة الانكليزية ص ١٥٥

(٢) أدوارد براون : التاريخ الادبى لفارس Literary Hist . of . Per ج ٢ ص ١٠٦

(٣) الشهرزوري : تاريخ الحكماء ، مخطوط ص ١٩٠

(٤) البيهقى : تاريخ حكماء الاسلام ص ٥٩

(٥) راجع مقدمة سخاو Sachau لكتاب البيرونى : الآثار الباقية ، المطبوع بليبسك سنة ١٨٧٦ ص ٤٧

(٦) القفطى : تاريخ الحكماء : ص ٢٠٨

(٧) القفطى : تاريخ الحكماء . ص ٢٠٨

٣٨٦ هـ ؛ كان من المعقول ، أو قل كان من الممكن ، أن يحدث ذلك أثناء وجود أبي سهل بجخارى ، ولذلك فليس يبعد أن يكون فيلسوفنا قد تتلمذ له فى الطب ؛ إلا أننا لا نعرف صبياً ما يمنع ابن سينا من ذكره بين من ذكرهم من أساتذته ، اللهم إلا أنه لم يتلق عليه علماً أو يدرس عليه طباً ، والواقع أن ابن سينا يذكر صراحة أنه تعلم الطب على غير أستاذ ، ولذلك فإننا نستنكر ذلك الرأى القائل بأنه تعلمه على أبى سهل المسيحى .

إن تشريح الأبدان لم يفس صبينا ابن سينا حلاوة ذلك النظر المجرد الذى عاونه على تذوقه إياه ذا المتفلسف أبو عبدالله الناتلى ، ولهذا فقد عاود أبو على دراسة الفلسفة بعد أن كان قد انصرف عنها إلى الطب ، وقضى عاماً ونصف عام — بعد سن السادسة عشرة — فى النظر فى أجزاء الفلسفة كلها ، فعاود دراسة المنطق ، وقرأ العلم الطبيعى والعلم الإلهى بتفرده من غير استرشاد بأستاذ ما ، كشأنه فى دراسة الطب . ويظهر أن هذه الفترة التى قضاها بين صحائف الفلسفة أو بين موسيقى العقول كما يقول فيثاغورس ، كانت أبرك أيام الطب وأنشطها فى حياة ابن سينا كلها ؛ فهو يقول عن نفسه إنه فى تلك المدة ما نام ليلة واحدة بطولها ، ولا اشتغل فى النهار بغير الدرس ؛ وكان يسهر الليالى فى داره ، يضع السراج بين يديه كما يضع الكتاب والدواة ، ويشتغل بالقراءة والكتابة حتى إذا ما غلبه النوم أو شعر بالإعياء والسآمة — وهما آفة الطلب والتحصيل — عدل إلى قدح من الشراب ، أو قل إلى أقداح منه ، ليسترد قواه ونشاطه ، ثم يعاود القراءة والكتابة بعد ذلك ، وما زال كذلك حتى استحكمت معه جميع العلوم الفلسفية ووقف عليها بحسب الإمكان الإنسانى كما يقول .

ويظهر أن هذا المجهود الفائق الذى بذله فى دراسة الفلسفة فى صغره ، أغناه فى مستقبله عن معاودة قراءتها مرة أخرى ، ولذلك فهو يقول لتلميذه الجوزجانى عند ما لقيه بجرجان بعد أن نيف على الثلاثين : « وكل ما علمته فى ذلك الوقت (أى وقت الطلب) فهو كما علمته الآن لم أزد فيه » (١) ، وقال أيضا : « وكنت إذ ذاك للعلم أحفظ ، ولكنه اليوم معى أنضج ، وإلا فالعلم واحد لم يتجدد لى بعده شىء » (٢) .

وإذن فلقد بنى ابن سينا فى سنى الشباب تلك القصور التى يطل منها الآن على عالم الأفكار .

مصادره

كانت مصادره التى استقى منها الفلسفة كتب أرسطو المترجمة قبل كل شىء ؛ تلك الكتب التى كانت — مدى ألفين من السنين — دائرة المعارف الكبرى لثقافة الإنسانية ؛ كذلك اطلع على

(١) القفطى : تاريخ الحكماء ص ٤١٥
(٢) القفطى : تاريخ الحكماء ص ٤١٦

شروح القدماء على أرسطو مثل ثمسطيوس والأفروديسي وفرفريوس الصوري وغيرهؤلاء ممن قدترجمت آثارهم الفكرية إلى اللغة العربية. وأيضاً اطلع على كتب الاسلاميين في الفلسفة، فإن « ظهير الدين البيهقي » يذكر أن ابن سينا كان يطالع « رسائل إخوان الصفا » كما كان يطالعها أبوه. (١)

وهو يذكر عن نفسه أنه لم يطلع على كتب سلفه الفارابي خصب ، بل كان لها الفضل الأول في تفهيمه غرض أرسطو في علم مابعد الطبيعة ، فهو يقص عن نفسه أنه قرأ كتاب « ما بعد الطبيعة » لأرسطو أربعين مرة حتى حفظه عن ظهر قلب، ومع ذلك فلم يفهم منه غايته، والتبس عليه غرض واضعه ، فأثر ذلك في نفسه وأيأسه من معاودة قراءته . واتفق أن كان يوماً بسوق الوراقين ببخارى ، وعرض عليه دلال كتاباً في علم ما بعد الطبيعة ، فرده عليه أبو علي بن سينا رد متبرم معتقد أن لا فائدة في قراءة هذا العلم ، فألح عليه الدلال وقال له : اشتر مني هذا الكتاب، فإنه رخيص أبيعه بثلاثة دراهم فقط، وصاحبه محتاج إلى ثمنه ، فاشتراه أبو علي وتصفحه ، فإذا به كتاب الفارابي المسمى « الإبانة عن أغراض أرسطو في كتاب مابعد الطبيعة » ، فأسرع به إلى بيته وقرأه لحينه ، فتجلت له في الحال معاني ذلك العلم وسفرت أغراض أرسطو فيه ، ففرح بذلك — كما يقول — وتصدق في ثاني يوم بشيء كثير من المال على الفقراء شكراً لله تعالى .

كذلك اطلع على مذاهب المتكلمين وعرف دقائق فلسفتهم (٢) ، ويبدو ذلك واضحاً في نقده آراءهم وتسفيهه مذاهبهم، ورده عليهم كلما لاقاهم في مسئلة من المسائل الفلسفية التي يتحدث عنها في كتبه ، فهو حين يتصدى لبحث الوجوب والإمكان يسفه رأيهم القائل بأن علة الحاجة للواجب هو الحدوث ، إذ هو يرى أن علة الحاجة للواجب هو الإمكان (٣) . وهذا مثال واحد من كثير مما يدل على أنه كان عليماً بمذاهب المتكلمين .

* * *

إن عهد الطلب في حياة ابن سينا لم ينته بعد كما سنرى عما قريب ، ولكنه قد جد عهد جديد في حياته يبدأ فيه الشاب العالم بأن يخرج إلى المجتمع البخاري، فيتصل بالسلطان ويؤلف الكتب الضخمة في الفلسفة والأدب ويتقلد بعض مناصب الدولة .

ألم بسلطان بخارى نوح بن منصور السامانى مرض حار الأطباء فيه ، وكان اسم الشاب ابن سينا قد اشتهر بينهم بالتوفر على القراءة والمعالجة ، فأجروا ذكره بين يدى

(١) البيهقي، تاريخ حكماء الاسلام . ص ٢٧
(٢) يتهم ابن رشد فيلسوفنا بأنه كان متكلما
(٣) سنتكلم عن هذه المسئلة في فصل آخر

السلطان وسألوه استدعاءه، فاستقدمه وشاركهم فى علاجه حتى برىء، ثم توسم بخدمة السلطان، ودخل فى حاشيته منذ ذاك. قال البيهقى معلقاً على خدمة ابن سينا السلطان بخارى: «وصار أول حكيم توسم بخدمة الملوك، وكان الحكماء قبل ذلك يترفعون عن ذلك ولا يقربون أبواب السلاطين». (١)

ومهما يكن من شىء، فإن صلته بالسلطان مهدت له أن يزيد اطلاعه وينال من العلم نصيباً أوفر، ذلك لأنه وقف جهده للتردد على مكتبة السلطان التى يظهر أنها كانت نفيسة غاصة بالكتب النادرة كما يفهم من كلام ابن سينا عنها، فهو يقول: «ورأيت من الكتب ما لم يقع اسمه إلى كثير من الناس قط، وما رأيته قبل، ولا رأيته أيضاً من بعد، فقرأت تلك الكتب وظفرت بفوائدها وعرفت مرتبة كل رجل فى علمه، فلما بلغت ثمانى عشرة سنة من عمرى فرغت من هذه العلوم كلها». (٢)

فى غير الطب ظهر ابن سينا فى المجتمع البخارى كمؤلف فى الأدب والفلسفة، فإن باكورة مصنفاته فى عالم الأدب كتابه فى العروض، يذكره ابن أبى أصيبعة فيقول: «معتصم الشعراء فى العروض، صنفه ببلاده وله سبع عشرة سنة» (٣)

ويذكر هو فى ترجمته التى أملاها بجرجان أنه كان بجواره رجل يقال له أبو الحسين العروضى، سأله أن يؤلف له كتاباً جامعاً لعلوم الفلسفة، فصنف له كتاباً أسماه باسمه ألا وهو «الحكمة العروضية» (٤)، أثبت فيه كل العلوم الحكمية ما عدا الرياضة، وكان له من العمر إذ ذاك إحدى وعشرون سنة. ثم صنف بعد ذلك كتابين آخرين لأبى بكر البرقى الذى رجحنا فى أول هذا الفصل أنه أستاذ الفيلسوف فى الأدب: وهما «الحاصل والمحصول»، ويقع فى نحو عشرين مجلدة كما يقول مؤلفه، ثم «البر والإثم» وهو فى الأخلاق يقع فى مجلدتين، وربما كان قد كتب ابن سينا وهو ببخارى غير ذلك فى الفلسفة وغيرها من العلوم. فإن المستشرق (فانديك) الذى نشر بمصر رسالة فى علم النفس لابن سينا يرى أن هذه الرسالة لا بد أن تكون باكورة مؤلفاته فى علم النفس، وأنها بذلك تكون من مؤلفاته ببخارى.

***

فى غير عالم العلم ظهر ابن سينا أخيراً فى المجتمع البخارى كعامل من عمال السلطان، فهو يذكر فى ترجمته أنه بعد وفاة والده تصرفت به الأحوال، فتقلد شيئاً من أعمال السلطان، وظل كذلك حتى اضطر إلى الارتحال عن بخارى والانتقال عنها إلى كركانج. ولعل الاضطرابات السياسية التى لحقت الدولة السامانية آنئذ هى التى حببت إلى الفيلسوف هذا الانتقال. قال ابن خلكان

(١) البيهقى: تاريخ حكماء الاسلام ص ٢٩
(٢) القفطى: تاريخ الحكماء ص ٤١٦
(٣) ابن أبى أصيبعة: طبقات الاطباء ج ٢ ص ١٩
(٤) ابن أبى اصيبعة: طبقات الاطباء ج ٢ ص ١٩

عن صلة انتقال ابن سينا بتلك الاضطرابات السياسية التى لحقت السامانيين : « ولما اضطربت أمور الدولة السامانية خرج أبو على بن سينا من بخارى إلى كركانج » . (١)

ويحدثنا ابن العتبى فى تاريخه (٢) عن هذا الاضطراب السياسى فيقول : « إن الأمير نوح ابن منصور الذى عالجه ابن سينا توفى سنة سبع وثمانين وثلثمائة ، وملك بعده ابنه أبو الحرث منصور ، فأنزل عن عرشه بسبب ثورة داخلية سنة تسع وثمانين وثلثمائة ، فبويع بعده عبد الملك ابن نوح ، فسقط بعد ثمانية أشهر ، ثم أعقبه أخوه المنتصر فأسقطه وأسقط عرش آبائه السامانيين السلطان محمود بن سبكتكين الغزنوى أكبر سلاطين ذلك العصر سنة ٣٩٠ هـ ٩٩٩م »

ولربما كانت تلك الاضطرابات التى يشير إليها العتبى هى سبب خروج الفيلسوف من بخارى إلى كركانج كما يرى ابن خلكان . ؟

للبحث بقية

محمد ثابت الفندى

(١) ابن خلكان : وفيات الاعيان جزء ١ ص ١٩٢

(٢) ابن العتبى : تاريخه المنشور بهامش ابن الاثير طبعة مصر ج ١١ ص ١٣ ـ ٤٤

المعرفة فى الحجاز

تطلب « المعرفة » فى الحجاز من حضرة الشيخ مصطفى محمد يغمور بمكة المكرمة .

المعرفة فى عدن

تطلب « المعرفة » فى عدن من حضرة السيد معروف عمر عقبه .

المعرفة فى مراكش

تطلب « المعرفة » فى مراكش من حضرة السيد أحمد داود صاحب المكتبة الأدبية بتطوان